سيدة القطار

لم يستطع خالد أن يأخد ما يكفيه من نومٍ عميق، حيث لم تتعدى لحظات سكونه المائة دقيقة، انطلق بعدها ليسافر إلى مدينة القاهرة في تمام السابعة صباحًا، وبعد مشوار استنفذ فيه كل طاقته، حان وقت العودة، و كانت الساعة تشير حينها إلى الواحدة والربع ظهرًا، وقع اختياره على قطار "٩٧١" مكيف الهواء، قادم من سوهاج متجه لبورسعيد، موعد قيامه من محطة القاهرة الساعة الثانية إلا الربع، بطبيعة الأحوال.. من غير المتوقع العثور على تذكرة لأن طبيعة الحجز ليست بالعشوائية، فلكل محطة يتوقف بها القطار مقاعد مخصصة محدودة العدد، و بالصدفة القدرية، فاز خالد بتذكرة من ضمن آخر ثلاثة تذاكر متاحين على القطار بأكمله، بدايتها القاهرة، نهايتها المكان المراد الوصول إليه (الزقازيق)، وكان موقع المقعد في عربات الدرجة الأولى، تحديدًا في العربة الثالثة مقعد رقم ٢٤، ومن حسن الحظ أن القطار الذى يقطع مسافة خمسمائة كيلو -متعدد الوقفات- يصل القاهرة في زمن قدرة ثمانية ساعات، كان قد وصل فى موعده على غير المتوقع، بمجرد جلوس خالد على مقعده فى تمام الواحدة و النصف مساءً، استغرق في نومٍ عميق مستحق، بعد أن عدَّل من وضع مقعده ليصبح أشبه بالسرير المائل بزاوية منفرجة، و تمر بضعة دقائق إلى أن أفاق وعيه على صوت جهوري غليظ، تمتلكه سيدة تظهر عليها ملامح الأربعينيات من العمر، تضع على وجهها ما يعادل نصف مساحيق تجميل نساء العالم بأكمله، تزن من الكيلو جرامات ما يتعدى المائتين كيلو جرام..

- هو دة كرسى رقم ٢٣

- ايوة هو حضرتك

تجلس السيدة بعد أن احتواها مقعدها بصعوبة، وفي نفس اللحظة يغادر القطار محطة القاهرة لاستكمال رحلته المقررة، وبعد عدة دقائق سيطر عليها الصمت في جميع الأركان

- هو انتوا ليه كده؟ ليه القسوة دي كلها؟

- نعم حضرتك! احنا نعرف بعض أصلًا علشان يبقى فيه بينَّا قسوة أو حنية!

- أنا أسفة.. مش أقصدك انت بالذات.. أنا أقصد انتوا كلكوا يا رجالة، قاسيين ووحشين

- أنا أسف حضرتك، أنا مُرهق جدًا.. مش قادر أركز، ممكن تسيبنيى مع نفسي شوية؟

- انتوا كده يا رجالة، وقت الجد بتهربوا..

- يا مدام ارحمينى، هو انتِ تعرفيني أساسًا! لو سمحتِ بلاش إزعاج، أنا في أشد الحاجة للراحة..

- أراد خالد أن يغادر مقعده، و يبحث عن راحتة في مقعد آخر شاغر، و لكنه فوجيء بحال القطار، فجميع المقاعد sold"

"out"، إذن فهو القدر الذي جعل خالد مضطرًا لتحمل امرأة ثرثارة، عكرت عليه صفو وحدته!

- قبل أى حاجة، ممكن اتعرف بحضرتِك؟
- عزيزة، بشتغل أمينة معمل في مدرسة حكومية في القاهرة وانت؟
- عمر فاروق العدل، محامي جنايات..
- وكمان محامي! أشوف فيكوا يوم يا رجالة..
- ليه كده! إيه اللي مزعلك من الرجالة والمحامين! قولي اللى عندك وخلصيني، أنا عارف إن مش مكتوبلي أنام في أم السفرية المهببة دي..
- جوزي ربنا ياخده، سابلي البيت وطفش وطلقني غيابي، واتجوز واحدة من بنات اليومين دول، عندها ١٨ سنة، يرضيك كده! يسبنى يتيمة مكسورة الجناح!
- أيوه طبعا يرضين..
- نعم؟ هو انت علشان محامي، هتصدق نفسك و هتعيش الدور عليا؟ ولَّا علشان رجالة زى بعض هتدافع عنه!

- يا مدام عزيزة كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه، جوزك مبقاش حابب يكمل حياته معاكي، قوليله مع السلامة.. وشوفي نفسك، لو كان شاف منك أى حاجة حلوة؛ أكيد كان هيتمسك بيكِ، أكيد هرب منك علشان ميكونش دلوقتى مكاني بيتعذب و بتتكفر ذنوبه..

- تتحول عزيزة من حالة انفعال متوسط الحدة، إلى حالة فوران عارمة مكبوتة، مصحوبة برمقة من عينيها الجاحظتين شديدي السواد تجاه خالد المسكين، وكأنها أنثى الدُّب التي تتوعد للذئب الذي يسعى للعبث والفتك بصغارها، ليسود بعدها الصمت الجو العام مرة اخرى، بعد أن ذهب النوم بعيدًا عن خالد الذى بدأ في سماع أغانى معشوقتة (نوال الكويتية)، سارحًا في روعة إحساسها، حتى وصل القطار مدينة بنها في تمام الثانية والنصف إلا خمس دقائق، وقبل أن يغادر القطار محطة بنها، تملَّك النوم من خالد بشكل سادي فتاك، جعل منه إنسان بلا إحساس، كالجائع الذي عثُر على طعامه بعد عناء، وعند تمام الثالثة عصرًا، أيقظت عزيزة خالد بصوتها العالي الرخيم، وجعلت توخزه في ذراعه، فنهض خالد من مقعده يتملكة صداع فتاك شديد الألم، يلتهم كامل جمجمته، ناظرًا إليها في حنق، وقبل أن يبدأ في لكم جبهة عزيزة.. بادرته بالحديث دون أن تدرك ما شرُع في ارتكابه في حقها..

- احنا وصلنا الزقازيق، فلو كنت هتنزل الزقازيق.. ياللَّا بسرعة انزل علشان القطر هيمشى حالًا
- اه فعلًا.. أنا نازل الزقازيق، شكرًا
- العفو.. أشوف وشك بخير..
- هو أنا ممكن أقولك حاجة، ومن غير زعل!
- اه طبعا و ماله، انت زي أخويا الصغير
- فصرخ فيها.. انتي طالق

- قالها خالد بقوة، ليتخلص من الطاقة السلبية التي ألحقتها به، وفي ظرف ثوانٍ معدودة؛ غادر خالد القطار خوفًا من أن تلحق به عزيزة، في حالة أرادت الفتك به، وأيضًا قبل مغادرة القطار مدينة الزقازيق، حيث أن المحطة التالية المقرر وقوفه فيها هي (الإسماعيلية) مباشرةً، والتى تبعد عن محطة الزقازيق نحو ثمانين كيلو، يقطعها القطار بلا توقف في فترة زمنية تتعدى الساعة وبضعة دقائق قليلة، وبمجرد خروج خالد من القطار الذي أطلق صافرة المغادرة استكمالًا لرحلته المقررة إلى بورسعيد، حتى اشتدت ألام رأس خالد بشكل أكثر حدة، لتجعل منه إنسانًا لا يبحث عن الأكسجين بقدر ما يبحث عن مسكن قوي، لتكسين الحرب العالمية المنعقدة فى رأسه، يتناول خالد المسكن الملائم لحالته، اشتراه من صيدلية

المحطـة، ويصـل بعـدها لمنزلـه، لا يبغـي شـيئًا سـوى سـريره الخـاص، ليقبـع بداخلـه فـي نـومٍ عميـق لمـدة عشـر سـاعات متواصلة، ليصحو بعدها بكامل حيويته و نشاطه، على زقزقة الطيور، معلنة شروق شمس يوم جديد، يأمل ألا يصادف فية من هي مثل عزيزة، ولا يصاب فيه بآلامٍ مبرحة.. أبعدها الله عن كافة عباده.

تمت

بقلم / خالد مجدي